

السيد جمال الدين الافغاني

في مذكرات شاعر الترك الاكبر عبد الحق حامد بك

نشر شاعر الترك الاكبر عبد الحق حامد بك مذكراته في جريدة (وقت) التركية التي تطبع في القسطنطينية . وقد جاء في خمسة مواضع منها كلام عن قائد النهضة وباعث اليقظة السيد جمال الدين الافغاني ، فانرنا أن لا يفوت قراء الزهراء الاطلاع عليه

قال عبد الحق حامد بك : لما حضر السيد جمال الدين الى لندن للمرة الاولى لم أكن فيها ، ولم أكن أعرفه . وإنما عرفته في جيبته الاولى الى القسطنطينية فأملت به إلماً . وفي زيارته الثانية للندن اجتمعت به فأحبيته الحب كله ، وعرفته المعرفة الحققة ، وجددت شرف صحبتي له

لست أدري لماذا كان بعضهم ينسب الى إيران هذا العلامة الأفغاني السيار الديار بين القسطنطينية والقاهرة وفي كثير من بلاد أوروبا وآسيا . وعندى أن ذلك الانسان الكامل لم يكن إيرانياً ولا أفغانياً وإنما كان رجل الدين والايمان ، والعلم والعرفان . وما كان بابياً ولا وهابياً كما يقال وإنما هو واعظ الانسانية الفذ ورسول شخصيته وحواري نفسه . وأذكر الآن أن كلمة غير مألوفة صدرت منه في زمن السلطان عبد العزيز بعثت له النعم والحزن وأبعدته عن القسطنطينية الى القاهرة ومنها الى الهند ومن الهند الى فارس ، ونجاة من اغلال الاستبداد فجاء الى ديار الحرية مضمرآ للشاه ناصر الدين عاطفة انتقام عادل ، وما زال به حتى قطع سلسلة أنفاسه التي كان يدعوها سلسلة المظالم

وبينا كان يلقي خطبه ومحاضراته في دار الفنون بالقسطنطينية ، وفي الجامع الازهر بالقاهرة ، وفي أنجمن اسلام بمدينة بومبي ، وفي سجون طهران وشوارعها

فان كلمة غير مألوقة صدرت منه في احدى تلك الخطب ذكر فيها النبوة في جملة الصناعات فكان ذلك سبباً لقذفه من بلد الى بلد ، وما برح غير ذي وطن حتى اتخذ جنة الخلد وطناً . ولم يدرك سامعوه يومئذ ان النبوة من سامى صنع الله صانع الملوك ، وبها تمحلت الاوثان ابداناً ، وصارت الأصنام أناماً . وهل الانقلاب الاسلامي المعجيب الا مما صنعه الله على يد رسوله الاعظم صلى الله عليه وسلم ؟

كنت وأنا في لندن على صلة دائمة بالسيد جمال الدين ، وكان يرى أن ناصر الدين شاه أشد الملوك استبداداً وجوراً ، أما السلطان عبد الحميد فاذا لم يكن شيئاً فهو خليفة على كل حال . وكان السيد يسكن غرفة علوية صغيرة Mansarde من منزل معد للأجرة في حي متطرف من أحياء لندن ، فيها يطالع ويكتب ، وفيها يأكل وينام ، ورغم فاقته فانه كان يرى في سعادة وراحة . واذا نزل من غرفته اجتمع ببعض المستشرقين وحادثهم وحادثوه في الامور السياسية والفلسفية . وكان خوجه تحسين وشقيقي نصوحي بك من أقرب الاصدقاء الى هذا العلامة الحكيم أو من حواريه . وكان الاستاذ اذا نظر الى السماء من نافذته في تلك الغرفة الشبيهة بالمرصد ربما رأى خياله بين النجوم ..

ولم يكن جمال الدين حسن الرأي في سفيرنا رستم باشا . وقد اتفق مرة أنه عجب لعدم وجود السفير في موكب جنازة لبعض العظام ، فقال لى ساعته :

- حق متى يمثل الدولة العثمانية في هذه العاصمة ذلك المعجوز الخليل العذار الذي وصلت احدى قدميه الى القبر ؟

والذي كنت أعلمه أنا عن رستم باشا أنه عجوز قوي البنية يخدم منصبه لاجل دولته ويخدم دولته لاجل منصبه . ولكن ، نعم ولكن ، لم يمنعه ذلك مرة من أن يقول للمسيو دوستال سفير روسيا الذي جاء لزيارته :

- انهم أرسلوني بهذه الوظيفة العظيمة الالهية لان الباب العالي أصيب

بمحط في الرجال

واتما كان اسيد ميه العقيدة برسهم باشا لان السفير كان يرى نجات الدولة العثمانية علي يد الانكليز ، والسيد يرى ذلك مما ينافي فكرة الجامعة الاسلامية واستدعى الشيخ ابو الهدى الصيادي السيد جمال الدين الى القسطنطينية بإرادة سلطانية . فقال لي السيد انه لا يستطيع الآن أن يلي هذه الدعوة انتظاراً لما يتوقع حدوثه في طهران . ثم سألتني كيف يستقبلونه في العاصمة العثمانية فيما لو حل الوقت المناسب لذهابه اليها . فابتسمت وقلت له :

— هنالك أحد أمرين : 'النفي' وال'اجلاء' ، أو 'التقريب' وال'اعلاء' .

وكان ناصر الدين شاه قد عزل ملفوم خان سفير ايران في لندن لاختلاف بينهما في الرأي . فاتفق معه السيد جمال الدين على اصدار جريدة فارسية اسمها (قانون) عملت على مناهضة ناصر الدين شاه ووزيره الاعظم . وبما انها تدعو الى الجامعة الاسلامية فقد كانت مؤيدة لمقام الخلافة ، وكان هذا يقتضي أن لا تكون هذه الجريدة مغضوباً عليها كثيراً في ديارنا . ولما سقط الوزير الاعظم الايراني عين زميل السيد في تحرير (قانون) سفيراً في روما لحكومته . ثم ذهب السيد الافغاني الى الاسنانة ، وفي غاي ان ذاك كان بعد مقتل ناصر الدين شاه لست أدري من ذا الذي شجع السيد جمال الدين — فجأة — على السفر الى القسطنطينية . فقد جاءني في يوم من الايام ودعاً ، فخرجت في اليوم التالي لتشيعه . وقال لي عند الافتراق :

— نعم ، اني ذاهب الى دار الخلافة . ولا أزال أذكر كلمتك في الاحتمالين فاما 'التقريب' وال'اعلاء' ، ولعله يكون وسيلة لخدمة عامة أقوم بها اذا حفت بي ظروف معقولة . وإما 'التغريب' وال'اجلاء' ، وهذا ما لا أبالي به ، وأنا قد تعودت الاحتفاظ بمبادئ في السجون والمهاجر . قد يسجنون شخصي وأما فكري

افليس في استطاعتهم أن يسجنوه . ولكن لماذا يُنكب جمال الدين هناك وهو الذي يسعى لخدمة الاسلام . وخدمة الاسلام ينبغي أن تكون من أعظم ما يقصد اليه الخليفة ؟

قال السيد كلمته هذه ، وذهب الى العاصمة العثمانية وهو على هذه النية ولما عدت الى القسطنطينية علمت أن السيد يسكن قصرآ في حي (نشان طاش) فذهبت لزيارته غداة وصولي . انه إنتقل من الغرفة الملوية في لندن الى قصر في القسطنطينية ، ولكن هذا الشخص المحترم كان هو وقصره في نطاق الحصار . ودخلت عليه غرفته وأنظار محاصريه من الجواسيس تتمقني بلحظاتها ، فوجدته محاطاً بالراقبين عليه ، ولكن النشاط والهمة لم يفارقاه . وكان يتظاهر بالضحك والابتسام احتياطاً ، غير أنني استطعت أن أكتشف ما تكنه نفسه وراء ذلك من ضيق ساحق . وانه لعذاب أليم أن يتسلي المرء بمصاحبة من لا يريد صحبته بجمالة البيئة وذوي السلطان . وكان عند زيارتي له كأنما يعاتب زائريه بما يجاملهم به من كلمات الايداس ، وينظر لي نظرات ذات معاني كثيرة وأردت غير مرة أن أستاذنه بالخروج فكان يستمهلني الى أن تفرق من عنده وبقيتنا منفردين ، فقال لي جواباً على أسئلة وجهتها اليه :

« ليس السلطان عبد الحميد جباناً ، ولكن تقارير الجواسيس التي يمتطرونه بها ينطوى كل واحد منها على دلالة تنذر بأمر مخيف ، فهي محاولة اغتيال ، وهي حكم بلاعدام . ان السلطان عبد الحميد لا يخاف الموت ولكنه يخاف القتل بيد السيوف والانزال كما قتل السلطان عثمان الفتي والسلطان سليم الثالث والسلطان عبد العزيز الذي لا يمتد السلطان بأنه مات منتحراً .

« ان حرصه على السلطنة منبعث عن مصلحة الامة أكثر مما هو منبعث عن محبته لنفسه . وأظن أنه لو علم بأنه سيخلفه على العرش رجل كفء وأن خلفه

لا يؤدى الى القتل لما استنكف من الخلع ، وكان ينتجى برضاه ، لكنه لا يرضى بأن يكون سلطانا مخلوعا موصوماً بالنهم . وهو يرى أن السلطنة والخلافة هبة الهية كالحياة ، ويقول لماذا انتازل عنهما ؟

« وما يؤسف له أن الملتفين حوله يستفيدون من اخافته ، ويكتسبون من خوفه شجاعة . وأستطيع أن أقول إن السلطان المسكين قد صار جيانا لطول ماعاش في الخوف من الاغتيل . كنت عنده يوما وهو يقرأ تقريراً من مجلس الوزراء ، وفيما هو يسألنى رأى فى بعض الجمل الواردة فيه جىء بتقرير من تقارير الجواسيس فترك تقرير مجلس الوزراء . وأظنه تركه على أن لا يعود اليه . وانكب على تقرير الجاسوس يقرأه المرة بعد المرة ، ويداه وشفتاه ترتجف . فأشفت عليه وسألت عن هذه الورقة . بتجلد تمازجه الرأفة - فقال :

- لا شئ . . وماذا تكون . انما تنبىء بمؤامرة كاذبة

فلم أتمالك ان قلت :

- وما دامت كاذبة فخبذا لو شُهِل

قال السلطان : - اذا لم نسمع أكاذيبهم لم نصل الى ما قد يصدقون فيه « نعم ، لقد برهن السلطان عبد الحميد على عظمة نفس لما امتنع من أن يسلمنى الى الحكومة الابرايية التي زعمت مراراً أنني ابرائى من رعاياها ، فكان دائماً يرد طلبها . وأنت تعلم أنني لست ابرائياً ، ولست من رعايا دولة من الدول ، انما أنا واحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم

« أراد السلطان عبد الحميد أن يقلدني الاوسمة ذات الدرجات الرفيعة وأن يلقبني بألقاب الرتب العالية ، فلم أوافق على ذلك وكنت أقول له :

- ان عطفكم علي واهتمامكم بي رتبة لا نعلوها رتبة

« وكنت جالساً أمامه مرة وجهاً لوجه حول منضدة تتبادل الحديث ،

والحاج علي بك واقف على قدميه . فعاد السلطان الى الكلام على الرتبة والوسام ، فوضعت يدي على المنضدة وقلت :

- برى جلالة مولانا كيف أن عبده الحاج علي بك واقف على قدميه في الحضرة ، بينما جلالاته قد أذن لي بالجلوس . ولست أرى مقاماً أعلى من هذا المقام الذي يتمناه جميع عبيد جلالكم

» ولم يكن للسلطان ثقة بأحد حتى تكون له ثقة بي . فهو يظن أنه مامن رجل الا وفي جيبه مديّة ، وفي نفسه أنفى ، وفي فكيه أنيابها . ويرى في أصدق القول سمّ الكذب ، وينذهب الى أن في قصره نخاً لاقتناصه وكيناً لاغتياله . الى هذا الحد كان السلطان عبد الحميد عجيباً

» على أنه كان كريماً مضيافاً . وكانت له تجارب الحاكّم الذي عاش ستمائة سنة وكل ما فيه يدل على الاصلّة والادب ، وترى أمارّة ذلك في يديه وفي رجله وفي كل جسمه ، وفي نظراته وجلسته ونهضته ومشيته وحديثه . فهو كأبي الهول يدل على العراقة في القدم . ولا أزال أذكر كلمتك : فإن أنفه أيضاً سلطاني » وكل الذين يدخلون عليه من رجال السياسة يهرم بأدبه وكياسته وذكاؤه ، لانه أمضى منهم سياسة ودهاء . وهو يدبر السياسة الخارجية ادارة لا بأس بها ، وله بعض النفوذ في أوروبا ، فإذا دارت مفاوضات مهمة حول حادث دولي يحسبون لما يقوله حساباً . فهذا كله مظهر من مظاهر الدولة أو أثر من آثار الدهاء . وفي قصره الصالح والطالح من الحاشية فالطيبون ليس عددهم قليلاً ولكن السلطة لأهل الشر منهم . ولذلك تسير السياسة الداخلية من سيء الى أسوأ . والسلطان عبد الحميد - على كل نقائصه - جعل نفسه ملاذاً للخاصة والعامة . وإذا قلت لك ان الخوف مهلكة فانت تفهم ما أعني

» أما موقعي أنا فمضحك : لي قصر وخيل ومركبة وخدم وحاشية . وقد

لحق بي السلطان مريد بن كثير بن ولله لاحظ أني شيخ فاطرفي بهم . ودر اویشی هؤلاء بطوفون بمنزلي ايلا ونهاراً ، واذا ركبت عربي لا يتصرون في ملاحقتها . ولكني اعترف بأنهم لا يلقون راحة شيخهم . وهذه الحال وان تكن بنفسها مرعبة للمواطف ومثيرة للفكر الحرفاتي انحملها لأن لكل شيء في هذا العالم نهاية « ساذ كرك عند السلطان أنت ورسم باشا في أول مقابلة »



واجتمعت بالسيد جمال الدين مودعا عندما ازمعت العودة الى لندن ، فرأيت في يأس وضيق صدر . وكان قد تقرر ارساله الى بعض الاقطار لتوثيق رابطة الاخاء الاسلامي ، ثم عدل السلطان عن ذلك في آخر ساعة ، وكان عدوله سبب عدا بين السيد والشيخ أبي المدي . وقال لي السيد :

« اني لما كنت أسكن الغرفة العلوية في لندن كنت أستطيع خدمة أمي أكثر مما أستطيعها هنا . وكما مر علي الوقت هنا ازداد يقينا بأنني لن أعمل شيئاً » وكانت قد بدت فيه يومئذ أمارات مرض السرطان ، فكان هذا أيضاً مما أزعجه ، غير أن قلعه المعنوي كان أشد عليه من خوفه على حياته . فودعته بحزن شديد وذكريات لانفسى

وبعد وصولي الى لندن اتقضى علي خبر وفاته اتقضا الصاعقة . وكأنه لما لم يجد الحق على اديم الارض صعد الى السماء ليقرب من عرش رحمة الحق سبحانه . وقد دفنوه بالقسطنطينية في مدافن (ماجقه) فأراد الله لي بعد ربع قرن من وفاته أن اتخذ دارا في هذا الحلي لأكون على مقربة من جسم هذا الرجل الروحاني ومن الغريب أن السيد الذي احتفل بتشيع نعشه احتفالا سلطانيا لا يعلم أحد قبره على التعيين ، ويقال انه أوصى بأن يكون قبره دواسا اتباعا للسنة النبوية . فهو اليوم لا زائر له الا روحه ، ولا أثر له أعظم من ذكرى كماله